

## الفصل الثالث عشر

### الطب اليونانى فى القرن الخامس وطابعه الأبقراطى

مع أن هذا الكتاب ليس تاريخاً للطب فقد سبقت فيه إشارات كثيرة إلى موضوعات طبية بحتة . ولعلنا نستغرب أن يكون الطب القديم ، قبل هذا الزمن ، قد بلغ أوجه على يد المصريين فى القرن السابع عشر وقبلة ، أى قبل العصر الذى نحن بصددده بأكثر من ألف سنة . ووصلت شهرته إلى بلاد اليونان كما تشهد بذلك الأوديسا<sup>(١)</sup> وتاريخ هيرودوت<sup>(٢)</sup> والمصنفات الأبقراطية<sup>(٣)</sup> . نعم ، إن الأطباء المصريين فى عهد دارا ( ملك فارس ومصر من ٥٢١ إلى ٤٨٥ ) لم يحتفظوا بالمكانة التى كانت لهم فى عهدهم الذهبى ، بل أوشك من اضطلع منهم بمعالجته أن يلاقوا حتوفهم لولا وساطة ديموسيدس<sup>(٤)</sup> . الذى ذكر أن دارا أعاد إنشاء معهد الطب المصرى فى سايس<sup>(٥)</sup> Sais . ومن الممكن أن يكون اليونان قد اقتبسوا شيئاً من المعارف الطبية البابلية ، إلا أنهم توصلوا ، منذ عهد هوميروس ، إلى استنباط الكثير من المعلومات بجهدهم الخاص . وما كاد القرن الخامس ينصرم حتى وصلوا بالطب إلى مستوى أرفع جداً مما كان عليه سابقاً فى مصر أو فى بلاد ما بين النهرين . ولكى نوضح أمر هذا الانقلاب—الانقلاب الأبقراطى — يتحتم علينا أن نلم موجزين بالتطور الطويل الذى أدى إليه .

من هوميروس إلى أبقراط :

تشير الإلياذة إلى كثير من المعلومات الطبية لا سيما ما اتصل منها بالجراحة . فنسمى لنا طبيين قديمين<sup>(٦)</sup> ماهرين هما بودالير يوس Podalirios ونجايون Machaon ابنا اسكليپوس Asclepius ابن أبوللو Apollo . ويصعد بنا هذا إلى

الأصول الدينية التي انحدر منها التعليم الطبي . ففي عهد هوميروس لم يكن اسكليبيوس إلهاً بل طيبياً « لا يناله اللوم » ، وازدهرت تعاليمه فيما بعد في عدد كبير من المعابد<sup>(٧)</sup> ، وعد منها في العالم اليوناني نحو ٣٢٠ معبداً . واشتملت طقوس هذه التعاليم على اغتسال الظهر وحضانة روحية تتجلى فيها للمريض رؤى يساعد تعبيرها على شفائه مما ألم به . وحين رفع أسكليبيوس إلى مصاف الآلهة رمز إليه برأس أسوة بزيوس (Zeus) وجُعل في يده صولجان التفت حوله حية واحدة . والحية رمز قديم لعبادة قوى الشر في العالم : تلك العبادة التي قرن بها اسم اسكليبيوس نفسه<sup>(٨)</sup>.

إن « الحضانة الروحية » طقس مارسه المصريون قديماً ، ولعل اليونان اقتبسوه منهم ، أو لعله نشأ عندهم نشأة مستقلة ، لأنه أمر طبيعي . فالمرضى أينما كانوا يتضرعون إلى معبوداتهم التماساً للصحة والإخصاب . وقد يفرون ، حيث المناخ حار ، بالنوم في باحة المعبد . وفي كان الكهنة الذين يتعاملونهم من ذوى النباهة ، بذلوا ما في وسعهم لجعل الجو أشد ما يمكن ملاءمة لتحقيق « الحضانة الروحية » : من راحة وافية ونشاط روحي وافر ، إلى أمن تام وثقة أكيدة . وفي الصباح التالي يندفع المرضى في التحدث عن اختبارهم وحكاية ما اعتورهم في تلك الليلة العجيبة التي سنعلم أن يقضوها في المعبد المقدس . وأهم شيء هو الرؤى التي يجتهد الكهنة في تفسيرها ، والتي تزيدهم معرفة بمحاجات المريض . أما تفاصيل هذا الطقس فتختلف بين مكان وآخر . واستخدامه لشفاء الأمراض يتوقف على نباهة القائمين على المرضى . فقد تظنى الخرافة عليه في بعض المعابد<sup>(٩)</sup> وتغلب عليه الصفة العلمية في سواها ، إذ من الثابت أن مزاولته هذا الطقس في أفضل حالاته كان أمراً صالحاً . ذلك أنه يستر لمقومات الإيحاء ، والإيحاء الذاتي ، أن تعبأ لهذا الغرض . وأي وسيلة أنجع من هذه في إحياء معنويات المريض وتعزيز حالته النفسية .

ولم يعرف هذا الطقس إلا أخيراً نسيها ، فظهر فيما يظن في أييداوروس<sup>(١٠)</sup> Epidauros قبيل سنة ٥٠٠ على أبعد تقدير . وبقي هذا المكان المقر الرئيسي

لعبادة أسكليبيوس ، ثم اشتهرت بالإضافة إليه بعد ذلك معابد كنيديوس Cnidos وكوس Cos ورودوس Rhodes وبرقة Cyrene . ولطهه المعابد أهمية خاصة بالنسبة إلى النشأة الأولى للطب اليوناني ، فإنه حين تعذر وجود مطيبين ، كان في استطاعة النبهاء من الكهنة أن يجمعوا تباعاً بيانات تاريخية عن الحالات المرضية ، ولا يستبعد أنهم دونها وحفظوها ، بل لعلهم أخذوا في تصنيفها وتبويبها بقليل أو كثير من الوعي والتعهد ، حتى تم لهم تدريجياً تأليف مصنف في الاختبارات الطبية . أما تعبير الرؤى فقد يتيح المجال لحديث شخصي بين الكاهن والعليل يشبه من وجوه ، في العصر الحاضر ، التماس النصيح من المرشد الديني أو الطبي أو «الإخصائي» في التحليل النفسي . ولا يفوتنا أن المعالجة بالأساليب الرشيدة يمكن أن يداخلها ، ولعله داخلها ، شيء من الممارسات السخيفة . إن الكثيرين من ذوى العلل يحتاجون إلى مثل هذه المعالجة ، فهم يطلبونها ويظفرون بها .

ثم إن معالجة المعبد مهما بلغ حظها من الأحكام قلما تجاوزت الوسائل النفسانية . وقد يشير الكهنة باستخدام بعض العقاقير ، ولكنهم لا يقدمون على شيء من عمليات الجراحة أو التوليد . وحتى وسائل العلاج الصغرى ، كالفصد والتدليك ونحر الضححية ، كانوا أميل إلى مجاوزتها والاشتغال عنها بسواها . فالتجارب الطبية التي توالى في بعض المعابد تكاد تكون محصورة في حقل علم النفس - وهو حقل في غاية الاتساع طالما أعاره الأطباء اليونان الاهتمام اللائق . إن التعليم الطبي الذي وصل إلينا يشبه أن يكون قد وقع أولاً تحت تأثير أساليب المعابد في العلاج . ولكن ينبغي أن نؤكد أن مصنفات العهد الأبقراطي تكاد تكون قطعاً علمية وعقلية ، لولا آثار من نزوات الخرافة وما لا يستحق الذكر من تلميح إلى الدين<sup>(١١)</sup> .

أما المعلومات الأساسية في العقاقير فقد تجمعت طيلة قرون عديدة على يد جامعي الأعشاب ومقتلعي الجذور (rhizotomoi) ، وبناء على ما في متناول يدينا من جملة المعلومات المتجمعة عن طريق التجربة ، وعلى ما نعرف من

بطء شديد في هذا الطريق ، نستطيع أن نقرر أن ذلك استمر أجيالا لا تحصى . فقد اختبر عدد عظيم من النباتات وعرفت بعض منافعها وكشفت أحص مؤثراتها ، ثم استنبطت الوسائل الفعالة لجمع ما كان منها أكثر نفعاً . وإن لم يمكن تعليل منافعها تعليلا معتزلاً وجدت الحرافة والبحر مكانهما إلى استعمال ذلك . ولذا يتعذر علينا أن نخوض في هذا دون أن نتوه في مجاهل الحرافات . ونفضل في شعابها الكثيرة . وإزاء هذا نكتفي بإيراد الحقيقة التالية : وهي أن تأثير كثير من أنواع النبات كان معروفاً لدى مقتلعي الجذور قبل نشأة علم الطب بزمان طويل . فقد تلقى الأطباء الأبقراطيون من أسلافهم المجهولين كنوزاً من العقاقير . وكل ما احتاجوا إليه من الأعشاب جمعه لهم عشابون محترفون قتلوا في عملهم هذا بجميع الطقوس الحرافية المهدودة . وكان عليهم مثلاً ، في غضون عملهم هذا ، أن يكونوا في حالة من الطهر ناتجة عن قيامهم ببعض الشعائر الدينية ، وإلا فلا تنفع الأعشاب المجموعة . وكان يشترط في بعض أنواع الأعشاب أن تجمع في الظلام ، أو في أوان ازدياد القمر أو تناقصه . وأن ترتل أثناء جمعها بعض الآيات السحرية ، وتستخدم لذلك أدوات خاصة . وتتناول الأعشاب المجموعة بحسب مراسم معينة ، ويجرى ذلك على وجوه شديدة التنوع ، ويهيم على كل مرحلة من مراحل ضرب من المعاني السحرية . وكما ذكر كونواي زيركل Conway Zirkle « أن جمع الأعشاب أو اقتلاع الجذور من صدر الأرض الأم يشبه إجمالاً اقتلاع الشعر من ظهر نمر راقد ، وهي مهمة خطيرة ما لم تتخذ لها الاحتياطات اللازمة<sup>(١٢)</sup> » وعلى كل لم يكن لزاماً على أطباء العهد اللاحق أن يستكشفوا الأعشاب أو الجذور . بل كان يؤتى بها إليهم ، وكانت مهمتهم تقتصر على إعادة استطلاع خصائصها وتعيين طريقة الاستعمال ومقدار الجرعة ، على نحو أقرب إلى مقتضيات العلم .

وبينا كان حماة الطريقة الأسكلبية يزدادون علماً ببطاقة الإنسان على الدفاع النفساني ضد المرض . ومقتلعو الجذور يمتصون في جمع الجذور والجذوع والأوراق والأزهار والثمار ويختبرون مفعولاتها . أخذ عدد من المدارس الفلسفية

في استنباط النظريات . ولنستعد إلى الذاكرة بصورة خاطفة المؤثرات الفلسفية التي كان من المحتمل أن تجيء ، وقد جاءت فعلا ، من أربع مناطق من العالم اليوناني وهي : جنوبي إيطاليا (Magna Graecia) صقلية ، أيونية Ionia وتراقيا .

فمن جنوبي إيطاليا جاءت التعاليم الصوفية ( فيثاجورس وأتباعه ) وطبيب هذه المدرسة البارز الكمايون الكريتزي (Alcmaion of Croton) ، وكان على جانب من الفطنة ، فأدرك مثلا أهمية الدماغ من حيث هو مركز للحواس ، وأن العافية ضرب من التوازن بين القوى . وقد حمل ديموسيديس (Democedes) ما توصل إليه الكمايون إلى بلاط فارس في سوس Susa . ومع أن فيلولوس (Philolaos) كان معنياً خاصة بعلم الفلك فإنه عرف شيئاً من علم وظائف الأعضاء ، وكان السابق إلى التمييز بين الوظائف الحسية والحيوانية والنباتية . ملاحظاً أن مركزها على التوالي في الدماغ والقلب والسرة ( ولا بأس بهذا إلا فيما يتعلق بالنوع الثالث ) . وكانت الأفكار العامة التي لم ينقطع سيلها في وقت ما . والتي طبعت بطابعها - قليلا أو كثيراً - تفكير الأطباء والفلاسفة على السواء ، تفوق مسائل الطب الخاصة تأثيراً .

و « نبي صقلية » هو إمبيدوكليس Empedocles ، وكان شديد الرغبة في الطب وعلم وظائف الأعضاء . وإن كان مغرماً بالشعر واستطلاع الغيب ( وهو شبيه لپاراكيلسوس Paracelsus ) . وفي مقدمة أتباعه آكرون الأجرينجتي (Acron of Agrigentum)<sup>(١٣)</sup> ( القرن الخامس ق.م. ) ، وبعده بقليل فيلستيون اللوكروي (Philistion of Locroi) ( النصف الأول من القرن الرابع ق.م. ) . وقد علق كلاهما أهمية خاصة على الهواء داخل الجسم وخارجه . ويميز آكرون بين مجارى الهواء المختلفة النافع منها للإنسان وغير النافع . ووضع - فيما ذكر سويداس (Suidas) - نظاماً لطعام (Regimen) الأصحاء من الناس (peri trophes hygieinon) . وعن پلوتارك (Plutarch) أنه أشار بإصرار النار لتنقية الهواء . عندما اجتاحت الطاعون أثينا . وفي هذه الرواية ما يثير الشكوك لأن ثوكيديدس

لم يشر إليها ولا إلى أكرون . ومهما يكن من أمر فإن هذا الخاطر : وهو أن الطاعون قدم نقل بالهواء ، وأن في الإمكان تقاديه بتطهير الهواء ، لرائع حقاً . وقد تكرر وروده دورياً لدى انتشار كل وباء حتى القرن التاسع عشر .

وكانت أيونيا (أو آسيا الصغرى) المهد الثالث للبحث النظرى في الطب . ويكنى شاهداً على ذلك أن نستعيد إلى الذاكرة أسماء أنكسيمينيس المياني Anaximenes of Miletos ، وأناكساجوراس الكلازوميني (Anaxagoras of Clazomenai) وهرقليتوس الأفسوسى (Heracleitos of Ephesos) وأرخيلاوس الملبيايى (Archelaos of Miletos) . ويجوز أن يلحق بهم - أخيراً ديوجنيس الأبولونى (١٤) (Diogenes of Apollania) . وكان هؤلاء علماء في الفسيولوجيا أى علم وظائف الأعضاء ، بالمعنى القديم ، بل كان بعضهم كذلك بالمعنى الحديث . ذلك أن نظرياتهم الكونية كانت ذات صلة تطبيقية بشؤون الأحياء في عالم الطبيعة . فأناكساجوراس وديوجينيس قاما بعمليات تشريحية (١٥) ، وعزز الأخير اتجاهات أناكسيمينيس وباقي الصقليين فيما يتعلق بصلات الآلة بالشؤون البشرية .

وهناك ، أخيراً ، المؤثرات المنبعثة من تراقيا (Thrace) على يد ديموكريتوس الأبدرى (Democritos of Abdera) الذى عرفه أبقراط معرفة شخصية ، وعلى يد هيروديكوس السلمبرى (١٦) (Herodicos of Selymbria) الذى كان فيما يقال ، معلمه . كان هيروديكوس يعلق أهمية كبيرة على الألعاب الرياضية ملاحظاً أن النشاط الجسدى والتقنين الغذائى ينبغى أن يتم أحدهما الآخر ويوازنه (وهذه إحدى النظريات الأبقراطية الأساسية) . أما ديموكريتوس فلدينا بعض المراسلات الغريبة التى جرت بينه وبين أبقراط (١٧) . ومع أن نسبتها غير ثابتة فإنها تدل على الشعبية التى كانا يتمتعان بها . هذا إلى أنها وثائق لدراسة الأسطورة الأبقراطية التى أخذت تتكون فى عهد عريق فى القدم . ويتيح هذه الرسائل فى الاختلال العقلى ومعالجته بالنبات الطبي المعروف بالحريق الأسود . ومن الثابت أن ديموكريتوس كان شديد التعلق بما يمكن أن يسمى القضايا النفسانية الطبية ، أو بتعبير حديث ناب : الطب الروحانى الجسمائى .

ولا شك في أن هذا الطب كان خير ما عرف في دراسات اليونان الطبية . ولا غرابة في ذلك إن أخذنا في الاعتبار الأصول التي سبق بسطها : ( الحضاسة الروحية ، والفلسفة ) . إن معارف ديموكريترس المستفيضة تبدو في اتساع مدى دراساته الطبية ، وقد نسبت إليه ضروب كثيرة من البحوث التشريحية . وحاول أن يعلل الالتهاب والصرع وانتشار الأوبئة بالعدوى ، وليس كثيراً من المسائل المستعصية ، مثل طبيعة الحماسة ، والخلق الفنى والعبقرية والعتة . ويبدو أن جهوداً بذلت في ذلك العهد ( في معابد الاستشفاء في الغالب ) لشفاء المرضى عن طريق الموسيقى ، وحاول ديموكريترس أن يعلل الشفاء عن هذه الطريق . وقد استخدمت الموسيقى خاصة في معالجة الاضطرابات النفسية ، واستخدمت أيضاً في حالات أخرى كالتسمم الناتج عن لدغ الأفاعى . والراجع أن الأعراض النفسية التي ترافق حالة التسمم هي التي أوحى إليهم بالعلاج الموسيقى<sup>(١٨)</sup> . على أن محاولات ديموكريترس لتوضيح أحوال الحياة النفسية وأسرارها لم تكن ناضجة ، ولا يزال جهلنا بهذه الأمور عظيماً حتى اليوم ، على أن الجهود العلمية اليونانية في عهده كانت جميعها كذلك . وكان طرح الأسئلة أيسر عليهم من الإجابة عنها ، ومع ذلك مجرد طرح تلك الأسئلة اقتضى قسطاً غير عادى من الخيال والحكمة ، والاستعداد لطرح الأسئلة العويصة ، والرغبة الملحة في ذلك من خصائص العبقرية اليونانية ، وهذا بالذات ما فعلته .

والآن لتحدث عن الموضوعين اللذين نضج فيهما الفكر الطبي : أعنى كنيديوس وكوس ، وهما في منطقة واحدة هي مقاطعة كاريا Caria الواقعة في للزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى<sup>(١٩)</sup> . إن وقوع المدرستين الرئيسيتين للطب في تلك الزاوية الصغيرة لم ينجئ اتفاقاً . فنظرة إلى الخريطة ترينا أننا لو أردنا الإبحار في اتجاه شمال غربى كوس وقعت جزر أيونيا ثانية في مجال أنظارنا ، ولو اتجهنا جنوباً لانتبهنا ، بعد اجتياز مسافة قصيرة ، إلى رودس . ونستطيع من رودس أن نبحر في خط منحني إلى قبرص فينيقياً فصر فالقيروان ، ثم نعود إلى كريت ، ومن هنا تسلمنا جزر سيكلاديس كل واحدة إلى الأخرى حتى

نبلغ أرض اليونان . والمسافر بجرأ يستطيع أن يجتاز بحر إيجه واليابسة تكاد لا تغيب عن نظره إطلاقاً . وأهم ما في الأمر أن كاريا ، وظهرها إلى روسيا ، أقرب نسبياً إلى كريت وقبرص ومصر . ومن ثم كات ذات موقع استراتيجي للتبادل الفكري . وليس ثمة ما يدعو إلى تجاوز مدرستي كنيديوس وكوس هذا التجاور . الأمر الذي يتعذر تفسيره . وربما تفرعت إحداهما عن الأخرى ، وإن عز علينا القطع بذلك . لا سيما وقد بزغ نجم المدرستين في أفق الطب في آن واحد . بعد عهد غامض من التيهو خلال جيلين أو ثلاثة لكلتا المدرستين ، ولا سبيل إلى تحديد ذلك بالدقة .

وبما أن معظم هذا الفصل والفصل الذي يليه سيخصص للبحث في شئون مدرسة قوس فلنبداً بمنافستها المعاصرة .

### مدرسة كنيديوس

إن الفارق الأساسي بين مدرسة كنيديوس ومدرسة كوس هو أن الثانية عنيت بالمرض عامة . في حين عنيت الأولى ببعض الأمراض الخاصة . ويمكن أن نقول . بلغة الطب الحديث . إن مدرسة كوس كانت تمارس الطب العام (الباثولوجيا العامة) . بينما اقتصرت مدرسة كنيديوس على الطب الخاص (الباثولوجيا الخاصة) . ولكل من الاتجاهين ما يبرره . وقد يذهب البعض إلى أن الثاني لا يقل ضرورة عن الأول . ولكن حتى مع التسليم بذلك . يعد الثاني سابقاً لأوانه . ويذكر جالينوس أن أطباء كنيديوس عرفوا سبعة من أمراض المرارة ، واثني عشر من أمراض المثانة . وهو قول ظاهر البطلان . ذلك أن وسائل التشخيص المرضي الدقيق لم تكن كافية لكشف الأعراض النوعية للأمراض . أعني للتمييز بين الأعراض ذات الدلالات التفاضلية ، وسواها من الأعراض التي ليس لها مثل هذه الدلالات . فأطباء كنيديوس كانوا عاجزين عن تحقيق فروق كهذه . وقد أسرفوا في الاهتمام بالتفاصيل العرضية حتى انتهى ذلك بهم إلى اختلاق أوهام من التصنيفات المرضية

(وهذا هو خلاصة نقد مدرسة كوس لهم) .  
عرفنا ، حتى الآن ، واحداً من أطباء كنيديوس هو المؤرخ كتياس (Ctesias) الذي اشتهر في البلاط الفارسي . وطبيبهم الأشهر هو يوريفون الكنيدي (Euryphon of Cnidos) ، ولعله ، مؤلف أو ناسخ مجموعة من الأقوال المأثورة هي « الأقوال الكنيديية » (Cinidiaz Gnomai) ورسائل كنيديية أخرى محفوظة في مجموع المصنفات الأبقراطية<sup>(٢٠)</sup> . وقد فقدت « الأقوال المأثورة » لسوء الحظ ، وحسرتفقدها وسيلة كان يمكن أن نستعين بها على التمييز بين المدرستين ، وهو أمر ليس بالهين ، لأن الفارق بينهما كمي لا نوعي ، هذا إلى أن المدارس الطبية المتنافسة لا يمكن أن تكون متباينة كل التباين ، وبالعكس مواطن الاتفاق بينها أكثر بحكم الضرورة من مواطن الخلاف . فأطباء كنيديوس مثلاً كانوا - فيما يبدو - أكثر اهتماماً بشؤون التوليد وأمراض النساء من زملائهم الكوسيين ، ومع ذلك لا يمكن أن يكون هؤلاء قد تخلوا تماماً عن معالجة النساء<sup>(٢١)</sup> .

قام يوريفون بأبحاث تشريحية ، ووضع كتاباً في « الحمى الزرقاء » (pelie nosos) ، وشرح ذات الجنب على أنه علة في الرقة ، وعالج السل باللبن والكي بالحديد المحمي . واشتهر ، بعد ذلك بقليل ، طبيب كنيدي ثالث هو خريسيبوس (Chrysiippos) الذي كان تلميذاً لفيلستيون (Philistion) ويودكسوس<sup>(٢٢)</sup> وقد جمع في شخصه بين نظريات كوس وصقلية .

لم تقتصر كنيديوس على إنجاب يوريفون وكتياس وخريسيبوس من الأطباء ، بل أنتجت أيضاً المهندس المعماري سوستراتوس (Sostratos) (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) باني منارة الإسكندرية ، والجغرافي أجاتارخيديس (Agatharchides) (النصف الأول من القرن الثاني ق.م.) . وأنجب أبنائها على الإطلاق يودوكسوس (Eudoxos) (النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع تقاطر الحجاج مزدحمين إلى معبد كنيديوس ليشاهدوا تمثال أفروديت ، وهو إحدى روائع براكسياتيلس (Praxiteles) الفنية .

## مدرسة كوس

بينما كان أطباء كنيديوس يطبون ويبحثون على رأس من رؤوس هذه الجزيرة ، ظهرت مدرسة أخرى إلى الوجود في جزيرة دانية الجوار . ونظرة ثانية إلى الخريطة ترينا أن جزيرة كوس تقع عند مدخل خليج [كيراميكوس سينوس Ceramicus Sinus] ، وأن الملاح الداخلى إلى هذا الخليج يجد هاليكارناسوس (Halicarnassos) إلى يساره وكنيديوس إلى يمينه . وإذن كان هيرودوت ويوريفون وأبقراط ، في وقت ما ، على مقربة تامة . وكوس جزيرة صغيرة ( ١١١ ميلا مربعا ) ، ولكنها خصبة جميلة ورائعة الموقع . تنتج الخمور والدهون ( الطيوب ) والحريير . وتعيش دودة القز الكوسية ( bombyx of Cos ) على ورق السنديان والدردار والسرو ، لا على ورق التوت كدودة القز الحقيقية . وهكذا كان الحرير الذى تنتجه مختلفاً عن الحرير الصينى . واستنبطت امرأة كوسية ، هى بانفيللا ابنة بلاتيوس (Pamphila-Plateus) (٢٣) ، طرقاتاً لإنتاج الحرير الخلى وحياكنه فصنعت منه أنسجة بلغت من الرقة أن كادت تغدو شفافة ، وصارت من أظهر كماليات العهد الأوغسطينى (٢٤) . وكما كانت كوس غنية بالعنب والحرير ، كانت ذات حظ في رجالها ، فهى مسقط رأس ( أو الموطن الرئيسى ) لثلاثة من شعراء القرن الثالث ق.م. هم فيلتاس (Philetas) وهيروداس (Herodas) وثيوكريتوس (Theocritus) والفنان المبدع أبلايس Appelles ( اشهر ٣٣٦ - ٣٠٦ ) الذى رسم لمعبد الجزيرة صورة شهيرة لأفروديت تمثلها خارجة من البحر (he anadyomene Aphrodite) . ومن دواعى الانشراح أن نتصور أبقراط وأتباعه في وسط كروم العنب وحقول التوت ، وأن نقرن ذكره بذكرى مصور لامع وشعراء أفذاذ . وأن نتصور كذلك أسكليبيوس يباهى أفروديت فيغرى الحجاج بزيارة الجزيرة (٢٥) . وفيما يعنينا الآن ، تعد جزيرة كوس قبل كل شيء ، مقر أعظم مدرسة من مدارس الطب في التاريخ القديم . وإذا كان أبقراط لم يؤسس هذه المدرسة ، فإنه بلغ من التفوق على جميع أطباء تلك الجزيرة بحيث

غدا « الطب الكوسى » و « الطب الأبقراطى » اليوم تعبيرين متعادلين . فن هو أبقراط هذا ؟

### أبقراط الكوسى

إن سرد كل ما نعرفه عن أبقراط لا يستغرق وقتاً طويلاً . ولد في جزيرة كوس حوالى سنة ٤٦٠ ، وتعلم الطب على والده هراكليديس (Heraclides) وهيروديكوس السليمبرى (Herodicos of Selymbria) وساح في بلاد اليونان سياحة واسعة ، والحالات المرضية التى وصفها في الجزيرتين الأولى والثالث من كتاب الأوبئة Epidemics ، مثلاً ، تتصل بجزيرة تاسوس Thasos ، ومدينة لاريسا في تساليا (Larissa in Thessaly) ومدينة أبديرا في تراقيا (Abdera in Thrace) والراجح نه تعرف بديموكريتوس في هذه المدينة أو في أثينا (؟) ، ومدينة ماليبوا (Maliboea) في ماجنيزيا (Magnesia) (شرق تساليا) ومدينة سيزيكوس (Gyzicos) إلى الجنوب من بحر مرمره ، وأماكن أخرى . واستشاره طبيباً برديكاس الثانى (Perdiccas II) (ملك مقدونيا حوالى سنة ٤٥٠ - ٤٠٣) ، وأرتا كسر كسيس الثانى منيمون Artaxerxes II Mnemon (ملك فارس ٤٠٥ - ٣٥٩) ، وتوفى في لاريسا بعد أن عمر طويلاً . وإذا كان تاريخ ولادته حوالى ٤٦٠ صحيحاً ، وعاش ما يقرب من خمس وثمانين سنة ، كانت وفاته حوالى سنة ٣٧٥ ، ويكون قد أوغل في القرن الرابع (٢٦) .

لدينا ثلاث ترجمات لحياة أبقراط ، أقدمها من وضع سورانوس (Soranos) (النصف الأول من القرن الثانى) ، ولكن هناك إشارات إلى وجوده تسبق ذلك بكثير . فذكره أولاً معاصره الأصغر أفلاطون ، تحدث في كتابه بروتاجوراس (٢٧) (Protagoras) عن شاب قصد إلى أبقراط طبيب كوس ليأخذ عنه علم الطب ، وفي فيدروس (٢٨) (Phaidros) يناقش ناحية من التعليم الأبقراطى ، وهى الحاجة إلى فهم الطبيعة تمهيداً لفهم جسد الإنسان ونفسه . ويسوغ لنا أن نستخلص من هذين الشاهدين أن أبقراط الكوسى ينتمى إلى أسرة من الأطباء الأسكليبيين

( سنشرح المقصود بذلك الآن ) ، وأنه عني بتدريس الطب وبلغ فيه شهرة ما في غضون حياته .

ويتحدث أرسطو في كتاب السياسة<sup>(٢٩)</sup> (Politica) عن عظمة أبقرات الطبيب . وأي حاجة بنا إلى شهادات أخرى بعد شهادات أفلاطون وأرسطو ؟ ومن مظاهر التعارض المستغرب ألا يشير أحد القدماء إلى مؤلفاته<sup>(٣٠)</sup> ، حتى يستطيع ويلامفتز مولندورف (Wilamowitz Moellendorff) أن يتحدث عنه « كرجل بلا مؤلفات » . ولكن لاشك في وجود عدد وافر من المؤلفات الأبقراطية . وستناقش صحة نسبة هذه المؤلفات إليه في الفصل التالي .

ينتسب أبقرات إلى أسرة ذات شهرة واسعة في الطب الأسكليبي . فجدده أبقرات ووالده هراكليديس (Heraclides) مارسا معاً الطب قبله . وكان ثانيهما . بطبيعة الحال . معلمه الأول . وتلاه ابنه تسالوس (Thessalos) ودراكون (Dracon) . وصهره بوليبيوس الكوسى .

إن الرسالتين الجراحيتين رسالة الكسر (Fracture) ورسالة المفاصل (Joints) ، وهما من مفاخر الطب الأبقراطي . سبقت نسبتها إلى جده أبقرات بن جنوسيديكوس (Gnosidicos) . وهذه النسبة وإن رفضت بوجه عام ، تدل على أن الجلد كان طبيياً ذا مكانة مرموقة .

واشتهر تسالوس في بلاط أرخيلالوس ملك مقدونيا بين سنتي ٤١٣ و ٣٩٩ ، وكان أحد مؤسسي المدرسة الجزمية في الطب (Dogmatic School) . ونسب إليه تحرير القسم الثاني والسادس بل والرابع من كتاب الأوبئة (Epidemics) في غير ما دليل . وقال عنه جالينوس إنه ألمع أبناء أبقرات<sup>(٣١)</sup> .

أما بوليبيوس ( النصف الأول من القرن الرابع ق.م. ) فكان أبرز خلفاء أبقرات . ولعله واضع رسالة « طبيعة الإنسان » على نحو ما أشار به أرسطو . وكل ما نعلم عن شكل أبقرات الخارجي أنه كان قصير القامة مثل كثير من عظماء الرجال .

## الطب الأبقراطي

الأولى بنا أن نبدأ بالمصنفات الأبقراطية كما فعلنا بالإلياذة والأوديسا . فندرس، مشتملاتها واتجاهاتها ، ونرجح النظر في مؤلفها . والواقع أن الحقيقة الأساسية التي نحن بصدددها هي هذه المؤلفات ، وهي بحكم طبيعتها خالدة . في حين أن مؤلفيها أياً كانوا زالوا كالأشباح ، ورغبة في الوضوح سنعالج الآراء الأبقراطية في سلسلة من الموضوعات المحددة .

### ١ - علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء

كان علم التشريح بدائياً . وربما كان الأطباء الأبقراطيون على شيء واف من العلم بالعظام وخاصة الجراحين منهم ، وإن كان لإمامهم بالأعضاء الداخلية والأوعية الدموية والعضلات والأعصاب مبهماً للغاية . ومع هذا كانوا مفتقرين إلى شيء من الإرشاد في التشريح ووظائف الأعضاء . وقد لجأوا إلى ما لجأ إليه سواهم من الأطباء الضليعين ، في مثل ظروفهم . فاستنبطوا أو اقترضوا نظاماً عاماً لوظائف الأعضاء . وكان سبيلهم في هذا المنحدر الخطر ، لحسن الحظ . مشفوعاً ببعض الاحتياطات . وقيدت تصوراتهم الجارحة بما عرف به اليونان من بديهة سليمة واعتدال في الحكم . ولولا ذلك لوقعوا فيما وقع فيه الطب الهندي والطب الصيني في نشأته وتطوره<sup>(٣٢)</sup> .

يتلخص علمهم بوظائف الأعضاء في نظرية الأخلط التي سبق أن ألمع إليها القدماء قبل ذلك بقرون كثيرة . ومن الواضح أن أجسام البشر ( أو أجساد الحيوانات الأخرى التي هي أسهل للملاحظة المباشرة ) . تشمل على سوائل ذات أهمية بالغة ، كالدم والبلغم المائع والصفراء . وتميز بعض حالات الاعتدال وتتحقق بما يرافقها من إفرازات سائلة، ومثال ذلك السائل المخاطي اللزج الذي يسيل من الأنف على أثر الزكام، والبصاق ، والإسهال . وكان العالم الفيثاجوري الكمايون الكريتوني ( القرن السادس ق.م. ) أول من اعتبر العافية حالة من تاريخ العلم

التوازن في البدن) والمرض اختلالاً في هذا التوازن (isonomia as against monarchia) مثل هذا الاعتبار إنما يركز ، بطبيعة الحال ، على طبيعة السوائل الجسدية. والمواطن القابلة للتغير في الجسم ، أكثر منه على الأعضاء الثابتة . وقد ردد إميبيدوكليس هذه الآراء بصورة أوضح وأدق فذكر أن الصحة (أو المرض) تابعة بدورها للتوازن (أو عدم التوازن) الناتج عن حال العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) التي منها تتألف الأجساد البشرية (وكل شيء سواها) . وقد استتبعت نظرية العناصر الأربعة نظرية الطبائع الأربع<sup>(٣٣)</sup> المتممة لها (البرسة والرطوبة والحرارة والبرودة) التي أشير إليها في كتاب « الطب القديم »<sup>(٣٤)</sup> وكتاب الصرع (المرض المقدس)<sup>(٣٥)</sup> . ثم استتبع ، فيما بعد ، نظرية الأخلاط الأربعة (البغم والدم والمرارة السوداء والمرارة الصفراء) . وأول شرح لنظرية الأخلاط الأربعة (يعني العناصر الأربعة والطبائع الأربع وحتى الفصول الأربعة) يقع في رسالة « طبيعة الإنسان » التي نسبها أرسطو إلى بوليبيوس . وما يدعو إلى الاستغراب أن نظرية الأخلاط هذه لم يرد شرحها في رسالة الأخلاط الأبقراطية (Peri chymon) .

ثم نشأت نظرية الأمزجة الأربعة استكمالاً لهذا المرم من الرباعيات . وشرحت لأول مرة على يد جالينوس (النصف الثاني من القرن الثاني)<sup>(٣٦)</sup> . واستمرت النظرية الأساسية في التعليم الطبي الجالينوسي حتى القرن التاسع عشر ، ولا تزال حية إلى اليوم - على الأقل - خارج نطاق الطب ، كما يشهد بذلك كثير من التعابير في معظم لغات العالم .

إلا أن هنالك فرقاً أساسياً بين نظرية الأمزجة الأربعة المتأخرة والنظريات السابقة . فالعناصر الأربعة والطبائع الأربع والأخلاط الأربعة موجودة في كل جسم . والعافية تستتبع قيام توازن بينها في كل واحد على انفراد . أما نظرية الأمزجة فهي نظرية أنثروبولوجية تعين على تصنيف البشر . وكل فرد من الناس مميز بمزاج خاص . ولا معنى للقول بتوازن الأمزجة . إلا بالمعنى الاجتماعي والسياسي<sup>(٣٧)</sup> ومقابلة هذه الرباعيات بسواها من النظريات الفسيولوجية مثل الثلاثيات

(tridosha) (الأخلاق الثلاثة) والحماسيات (Pancabhuta) (العناصر الخمسة) في نظرية ايورفيدا . والنظرية البوذية في العناصر الأربعة ، والفكرة الصينية عن ين (yin) ويانغ (yang) - أقول: إن المقابلة بينها من البحوث الشائقة حقاً، وكلها تمثل الرغبة العقلية الملحة في تحقيق التناسق ، الأمر الذي أرشد رجال العلم (وأحياناً أضلهم) في العالم أجمع .

## ٢ - التكهّن في مقابل « التشخيص »

كان الأطباء الكنديون . كما سبقت الإشارة ، يحاولون أن يشخصوا أو يميزوا أمراضاً خاصة ، في حين كان منافسهم في كوس أكثر توفراً على العناية بالحالة المرضية بوجه عام . وكان همهم أن يردوا جميع الأمراض إلى إحدى فئتين ( انظر الفقرة الرابعة فيما يأتي : ) بل إلى فئة واحدة . بحيث أصبح عماد الأمر عندهم التكهّن (Prognosis) وهو القدرة على التنبؤ بكيفية نشأة المرض ووجهة تطوره وعاقبة أمره . وما إذا كان من المحتمل أن تكون الإصابة قاضية أم لا . وينبغي ألا يغيب عنا أن أطباء القرن الخامس قلماً تهباً لهم - إن كان قد تهباً - أن يصيبوا في تشخيص الأمراض ، وإن الذي كان يهّم المرضى إنما هو العافية لا أنواع العلل وأعراضها ذلك أنهم كانوا يلوذون بالطبيب على نحو ما يلوذون بالكاهن . وكانت الأسئلة التي تشغلهم : هل يقدر لهم أن يعيشوا ؟ وهل يسترجعون العافية ؟ وكم يتوقع أن يطول زمن مرضهم ؟ تلك كانت أسئلتهم .

وبفضل التكهّن تمكن الطبيب من أن يميز مراحل المرض المختلفة في كل علة ، ويسرله بزيادة الخبرة ، أن يتنبأ بها . ففي مرحلة المرض الأولى ( تلك التي قد ندعوها اليوم بلور الحضانة ) تضطرب نسبة الأخلاق تدريجياً ويختل توازنها . وقد دعا أبقراط هذه المرحلة مرحلة « النضج المرضي » (Pepsis) وهو مجاز ناب مستعار من طهو الطعام أو تخمير المشروبات الروحية . وبعد عدد معين من الأيام تتم عملية « الطهو » وتتجلى الأزمة المرضية أو بكلام آخر يتضح المصير ويتقرر الحكم . على أن هذا الحكم لم يكن دائماً حاسماً . حتى حين

تكون الأزمة ملائمة ، أى فى الحالات التى تدعو إلى التفاؤل . فإنه ربما عقبها انتكاس (hypostrophe) أو إفراز أو احتقان (apostasis) لمادة متفحكة (بصورة خراج أو دمل) . زد على هذا أنه لما كان الكثير من الأمراض التى تعهدتها الأطباء اليونان من حميات الملاريا ، فإنها تتطور تطوراً منتظماً ، وضرورى أن يكون هذا قد عرف من عهد قديم جداً . ولوحظ أن الأزمت المرضية الجلدية تتكرر دورياً فى أيام معينة هى «أيام المرض الحرجة» (crisimos hemera) (٣٨) . فجدول الأيام الحرجة على ما فى «كتاب التكهّن بالمرض» Prognostic هى ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٦٠ . وهى فى «كتاب الأوبئة» Epidemics (٣٩) ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ١٢٠ (وجميعها أيام شفعية) أو ٣١ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣١ (وجميعها أيام وتيرية) .

إن الطبيب البارع هو الذى يستطيع أن يكون فكرة عامة عن المرض فى عهده الباكر . ويتمكن من أن يستشف الأخطار (الأيام الحرجة) قبل وقوعها ، فيعمل على تقوية إرادة المريض حتى يصمد لها .

### ٣ - ماذا عرف الأطباء الأبقراطيون من أمراض ؟

عرفوا أولاً الأعراض الأساسية لاختلال التوازن فى أجسام البشر ، وهى ارتفاع حرارتها . ومع أنهم لم يتمكنوا من قياس درجة الحرارة كما نفعل نحن اليوم فإنهم تمكنوا من أن يحسوها . وربما كانوا فى ذلك أبرع منا نحن اليوم . لقد تبسّر لهم أن يراقبوا الجلد والاسان والعينين ، ويلاحظوا العرق والبول والبراز ، وأن يقرأوا الكثير من الفوارق التى تتميز بها الحميات بأنواعها . وربما كان بعض تلك الفوارق زائفاً ، لكن الراجح أن كثيراً منها كان ذا دلالة تفاضلية صحيحة . هل لاحظوا سرعة النبض ؟ يبدو أنهم لم يصلوا إلى ذلك . أو أنهم لم يلاحظوه بوضوح ، وهو من الألغاز المحيرة فى المصنفات الأبقراطية . فإنها تكاد تخلو من أى ذكر للنبض . وإننا لنشعر أنه يعيد عن التصديق ألا يكون أطباء اليونان الأولون قد جسوا نبض مرضاهم . فإن ملاحظة حركة النبض (فى

الساعد أو الساق) مما لا يمكن أن يفوت الرجل النبيه عاجلاً أو آجلاً .  
وهذا الأمر من الغرابة بحيث يضطرنا إلى أن نقف حياله يرهة نتفحصه عن  
كتب . إن أطباء مصر القدماء كانوا على بينة من أمر النبض<sup>(٤١)</sup> فكيف  
طمست معالم هذه المعرفة ؟ نعم إن ديموكريتوس يذكر ضربات النبض  
(phlebopalia) وفي مجموع المصنفات الأبقراطية إشارة واحدة إليه لا غير ،  
وذلك في كتاب الغذاء Nutriment<sup>(٤١)</sup> وهي : « نبضان العروق ( الأوردة) وتنفس  
الرئتين تبعاً للسن ، واتساق الحركة في كل منهما أو عدم اتساقها ، وكل تلك  
دلائل المرض والعافية ، وهي دلائل على العافية أكثر منها على المرض ، أو على  
المرض أكثر منها على العافية » . وهذه إشارة غير وافية ، فالخلط فيها بين  
النبضان والتنفس واضح ، والإيهام في التعبير مزعج<sup>(٤٢)</sup> . وهناك دراسة في  
النبض منسوبة إلى طبيب مغمور من أطباء العهد الأبقراطي هو أيجيميوس الاليسي  
Aigimios of Elis<sup>(٤٣)</sup> . وإلى بروكساجوراس الكومسي Proxagoras of Cos  
( النصف الثاني من القرن الرابع ق.م. ) .

على أننا لا نستشعر الثقة إلا حين نوافي الهيليني الإخصائي في التشريح ، وهو  
هيريوفيلوس الكلسيدوني ( النصف الأول من القرن الثالث ق.م. ) . فنذ ذلك  
العهد ( ونحن الآن في عالم آخر مختلف عن الأول كل الاختلاف ، وهو العصر  
الهيليني الناشئ في الإسكندرية ) . أخذت معرفة اليونان بالنبض تتقدم بخطى  
واسعة . وكانت نتائجها ، كما دونها جالينوس ( النصف الثاني من القرن الثاني ) في  
مؤلفه (Synopsis peri sphygmon) أساساً لعلم النبضان حتى العصر الحديث<sup>(٤٤)</sup> .  
ولنعد الآن إلى الأطباء الأبقراطيين . فإنهم كانوا على علم بوقوع إصابات  
في الحميات على اختلافها ، وإن عجزوا عن قياس درجة الحرارة وإحصاء  
نبضات القلب ، كما نفعل اليوم . ذلك أن أنواع الحميات كانت شديدة  
التباين من حيث مقدماتها ، ولكل نوع منها سيره الخاص . ودورته المعينة ،  
وأيامه الحرجة . وإليك هذا التفصيل في كتاب الأوبئة (Epidemics) :  
« يلزم بعض الحميات المريض باستمرار ، وبعضها الآخر يلزمه في

النهار ويفارقه في الليل . أو بالعكس . ومنها « حمى شبه الثلث » « حمى الثلث » « حمى الربيع » « حمى السبع » « حمى التسع » .

وأكثر الأمراض حدة . وأشدّها وطأة . وأعصاها علاجاً . وأكثرها خطراً على الحياة . إنما هو الحميات المستمرة . وأقلها خطراً . وأيسرها علاجاً ، هو حمى الربيع . وإن كان أطولها مدى . ولا تقف حمى الربيع عند هذا ، بل قد تساعد على إزالة أمراض أخرى . بعضها خطير . والحمى المعروفة « بشبه الثلث » . وهي أشد خطراً على الحياة من سواها . قد تستتبع أمراضاً حادة . وتسبق على الأخص الأمراض الصدرية . وتدهام الذين يعانون أمراضاً أطول أجلاً وأبطأ زوالاً . أما الحمى الليلية فليست شديدة الخطر . وإن كانت تلازم المريض طويلاً . والنهارية تلازم المريض مدة أطول . وتؤدي ببعضهم إلى داء السل . وحمى السبع طويلة الأمد وإن كانت غير مميتة . وحمى التسع أطول أمداً . وغير مميتة أيضاً . و « حمى الثلث » الحقيقية تشتد سريعاً ولكنها غير مميتة . وحمى الخمس أخطر الجميع لأنها إذا سبقت داء السل . أو وفدت في غضونّه ، قضت على المريض<sup>(٤٥)</sup> .

وقد شرح و. هـ. جونز (W.H. Jones) المقصود بذلك كله شرحاً وافياً في الكتب التي وضعها في الملاريا وتاريخ اليونان<sup>(٤٦)</sup> . وكانت الملاريا والأمراض الصدرية أوسع الأمراض انتشاراً في عهد الأباطرة وفي مواطنهم . وكانت الأخطا في كلتا الحالتين من أوضح ما تتجلى فيه الأعراض المرضية . والأخطا هي : البلغم ( في المخاطيات . والنخاميات ) والدم في (حالة النزيف) والمرارة السوداء والمرارة الصفراء ( في نوبات التقيؤ في الملاريا الدورية - المترددة ) . وكانت الملاريا هي الباعث الغالب على ذلك كما يشير جونز حيث يقول :

« إن البلدان الموبوءة بالملاريا يغلب على سائر الأمراض فيها - لا على الملاريا وحدها - أن تشتد بقسوة في مواسم خاصة . والملاريا الكامنة تؤثر في الواقع على كل الأمراض »<sup>(٤٧)</sup> .

وهنا يساعد على تحليل اهتمام أبقرات بالتكهّن ( في مقابل التشخيص ) .

ذلك أن الطبيب المحرب يستطيع تمييز الملابس في أكثر الأوجاع على الرغم من اختلاف دوراتها . وتباين فروقها الأخرى . وهذا ما حدا بأبقراط إلى أن يعنى بالمرض بوجه عام ( في مقابل الصحة ) أكثر من عنايته بأنواعه المختلفة .

إن الحميات التي تناولتها المصنفات الأبقراطية بالبحث كانت في جملتها حميات ملاربية<sup>(٤٨)</sup> . أو من تلك التي تلازم ذات الرئة . وذات الجنب وداء السل . ولا ذكر هناك للجدرى والحصبه والحمى القرمزية والخناق والطاعون الدملي والزهرى . نعم ، إننا على شبه يقين من أن الزهرى إنما وفد من أمريكا في آخر القرن الخامس عشر ، ولكن ماذا يقال بشأن الأمراض الأخرى ؟ ألم يكن لها وجود في الزمان القديم ؟ وإذا تحقق وجودها فكيف فات قدماء الأطباء أن يلاحظوا بعض أعراضها الواضحة ؟ إن ذلك لما يوقع في حيرة شديدة ، كما هي الحال دائماً حين يشوب المعرفة والفتنة جهل بعيد الغور .

وهناك لغز آخر هو سكوت المؤلفات الطبية عن الطاعون الذي اجتاح مدينة أثينا . فإن نحن أخذنا بعين الاعتبار الكارثة التي سببها هذا الوباء الوبيل تعذر علينا أن نعلل لإعراض تلك المؤلفات عن وصفه بصورة واضحة ، فضلاً عن إضرابها عن ذكره بتاتاً . ولولا أن ذكره ثوكيديديس - وهو ليس بطبيب - لكنا اليوم في غفلة من أمر وقوعه .

وهناك إشارات كثيرة إلى داء الرمذ . وليس هذا بغريب . لأن أنواعاً عديدة من أمراض العين كانت ولا تزال واسعة الانتشار في الشرق الأدنى . ومع ذلك لا نجد منها ما هو من قبيل العلم الفنى إلا ما ندر . وبالعكس هذا وصفت الحميات الملاربية وصفاً وافياً ، وصف ما كانت تؤدي إليه أحياناً من انحطاط صحي عام ، وأنهيار في الحالة المعنوية . وما يعرف بالجزال الملارى الذى يتميز بضعف البنية ، وفقر الدم ، وقتوم البشرة . وتضخم الطحال : وورد كذلك وصف لحالات الهذيان وغير الهذيان من الاضطرابات العقلية . ومثل هذه الأمراض لا يمكن أن يغفل عنها لأنها تعلن عن نفسها .

## ٤ - علم الصحة وفن العلاج

إن الطابع العلمي الذي يميز جهود الأطباء الأبقراطيين يظهر جلياً في كيفية علاجهم للمرض . ذلك أن الفارق الأساسي بين العالم وغير العالم ، أكثر ما يتجلى ، في أن الأول يكون غالباً على بينة من أمر جهله ، في حين أن الآخر « تام المعرفة » . ( وبهذا الاعتبار كان سقراط من رجال العلم ) . إن القول « أنا عالم بكل شيء » عنوان الجهل الفاضح . وقياساً على ما تقدم يسوغ لنا أن نقول إن الفارق الأساسي بين الطبيب المستقيم والمطبيب المشعوذ هو أن الثاني يقطع وعداً بالشفاء ، بينما يكون الأول أكثر تحفظاً وأوفر رصانة . وليس صحيحاً أن جميع الدجالين محتالون همهم ابتزاز الأموال لا غير ، فإن بعض الأطباء البارزين لا يقلون عن الدجالين طمعاً . والفارق بين الفئتين لا يقوم على درجة الطمع بمقدار ما يقوم على قلة النقد . والدجال في الغالب ، كريم النفس مؤثر للخير ، ينشط لإغاثة جميع من يستطيع إغاثتهم من جيرانه . وهو حريص على تحقيق الشفاء للمريض ، حرص الرجل العادي على التماس المعرفة . والفكرة في كلتا الحالتين هي وليدة الرغبة . ولقد كان أبقراط شديد الرصانة كثير التحفظ بالغ التواضع . وكانت وسائل العلاج الفنية المتوافرة لديه قليلة الحدودى ضعيفة الأثر ، وكان على علم بذلك . وقد لجأ في علاجه إلى استخدام المسهلات ، والمقننات والمنعشات ، والمحيطات ، والحقن الشرجية والجلدية ، والفصد<sup>(٤٩)</sup> . واستعان على إخلاء الجسم بالتقنين الصارم المسغب للطعام ، وعمد إلى المسكنات والحمامات ، والفرك والتدليك ، ووصف ماء الشعير « نقيع الشعير » و« حساء الشعير » ( ptisane ) ومنها اللفظة الإنجليزية ( ptisan ) ، والفرنسية ( tisane ) التي تطلق على أنواع النقيع كافة ، والخمر وشراب العسل ( عسل محلول بالماء ) والعسل المحلل ( عسل محلول بالخل ) . ولتذكر أن اليونان عرفوا العسل لا السكر<sup>(٥٠)</sup> . وكان أكثر ما استطاع الطبيب أن يرجوه في علاج المريض أن يلفظ ألمه ما أمكن ، وينشط جسمه ، ويقوى معنوياته .

إن الألفاظ اللاتينية ( vis medicatrix naturae ) ( قوة الطبيعة الشفائية )<sup>(٥١)</sup>

تعبّر تعبيراً أنيقاً عن الفكرة الأساسية في التعليم الأبقراطي . وهي في التعبير الطبيعي الحديث « أن العافية حالة من التوازن المستقر ، والعلّة تصدع في ذلك التوازن . وحيث لا يكون التصدع بالغ العمق ، لا يلبث التوازن أن يستعيد مكانته من تلقاء نفسه . فينبغي ، والحالة هذه ، أن يوفر للمريض من الراحة الجسدية وهدوء النفس ما يتسنى معه للطبيعة تحقيق قوتها الشفائية ، ومزاولة مهمتها دون أن تقوم في سبيلها العقبات ، ثم إعادة العافية ( إرجاع حالة التوازن) فوراً إلى ما كانت عليه . وواجب الطبيب الأول أن يرعى المريض ويعين الطبيعة في عملها .

وإذن علم العلاج أمر أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى وصف العقاقير ، والضمان الرئيسي للعافية في تدبير صالح يجمع بين كمية معتدلة من الغذاء ومقدار موافق من الرياضة . مع العلم بأن المشي من خيرة أنواع الرياضة لمن ألف الجلوس . وقد بسطت هذه الآراء في الفصلين الثالث والرابع من كتاب « التدبير (Regimen) » ووردت متفرقة في مصنفات أبقراطية أخرى .

## ٥ - علم المناخ الطبي

بين الرسائل الأبقراطية رسالة ، لم يخامر أحد الشك في صحتها ، وعنوانها « الأهوية والأمواه والأماكن » (Peri aeron hydaton topon) ، وهي بلاريب أول رسالة في علم المناخ الطبي ، وتصف أثر طبيعة الأرض والمناخ في الصحة والأخلاق . وإذا استثنينا الأخصائيين في منافع الحمامات وسواهم من الأطباء المتصلين بمناطق الاستحمام؛ فإننا نجد أن الأطباء الحديثين لا يعيرون عوامل المناخ من الالتفات ما أعارها زملاؤهم في العصور القديمة والوسيلة . وذلك لأسباب منها أن أسلافنا القدماء كانوا أكثر خضوعاً لعوامل المناخ منا نحن اليوم ، لا سيما في المدن حيث يعيش أحدنا - إذا صح التعبير - في مناخ مصطنع . وقد يكون ذلك تحت تأثير الإهمال التدريجي والجهل المتزايد بمؤثرات المناخ الناجم عما لكثير من العوامل الأخرى من استهواء . ولعل الأولى بنا أن نغير عامل المناخ

نصيياً أوفر من عنايتنا؛ فن الراجح جداً أن شفاء بعض المرضى يتم فى مكان ما أيسر مما يتم فى سواه من الأمكنة (٥٢) .

إن درس الصلوات بين المناخ والحالة الصحية طالما كان موضوع عناية خاصة لدى مؤرخى الطب . وذلك جريباً على المنهج الأبقراطى من جهة . واتباعاً لتقليد « الاستحمام » (٥٣) من جهة ثانية . على أن العامل الأساسى فى ذلك إنما هو تأثير المناخ وطبيعة الأرض فى انتشار الأوبئة . ونجد : من ناحية أخرى ، أن القائمين على التعليم فى أوربا كانوا ، وما زالوا حتى الأمس القريب ، يعتبرون التاريخ والجغرافيا موضوعين متوازيين ، وعليه ليس مستغرباً أن يعمد العلماء الذين عالجوا تاريخ الطب إلى درس جغرافيته (٥٤) .

#### ٦ - المظاهر العلمية فى المنهج الأبقراطى

تبين لنا من الأبواب السابقة بعض هذه المظاهر ، ولكن لا بد لنا أن نعود إلى ذلك لأنه من صميم الموضوع الذى نحن بصدده . وإذا طلب إلينا تعريف الطب الأبقراطى بأخص مميزاتة وبأوجز تعبير كان الجواب : إنه الطب العلمى . وهو الأول من نوعه فى اليونان إن لم يكن فى العالم أجمع (٥٥) .

أخذ أبقراط على عاتقه أن يحل المعضلات الطبية بطريقة معقولة ، بل إنه عرض نفسه أحياناً لآلهم طالما تعرض له الخبراء المعاصرون . وهو أنه كان أقل اهتماماً بشفاء الحالات المرضية الفردية منه بالمعرفة نفسها . وليس ثمة ما يثبت قلة اآثراته بمرضاه إلا تلك القصص الإكلينيكية التى تصوره متبلد الشعور - وكذلك ينبغى أن يكون . على أن تقصير هذه الحكايات فى إبراز عواطفه لا يثبت أنه كان فاقده الشعور؛ وأنه لم يكن يتألم لموت مرضاه . وسيرد لنا فى الفصل التالى نماذج من هذه القصص وهى مدهشة حقاً . فى الفصلين الأول والثالث من كتاب الأوبئة يصف أبقراط حالات مرضية على نحو ما يفعل أطباؤنا اليوم مشيراً إلى ما يعتبره جوهرياً لا أقل ولا أكثر . فقد وصف اثنتين وأربعين إصابة انتهت منها خمس وعشرون بالوفاة . ووثق أبقراط - شأن العالم

الحق - أن الصدق ينبغي أن يقدم على كل اعتبار آخر ، ولذا دون حوادث إخفاقه بالدقة التي اعتمدها في تسجيل ما حالقه فيه النجاح . ( والطبيب الدجال هو الذى يحرص على أن يخفى إخفاقه . وليس بلازم أن يكون ذلك لأنه مخادع ، بل لأن مهنة الشعوذة الطبية في جملتها تستتبع ضمناً الإغراق في الثقة) .  
إن مزايا عبقرية أبقراط العلمية تتجلى في ملاحظاته الدقيقة وأحكامه المعتدلة وجه للحق . وبصورة غير مباشرة في رفضه للخزعبلات والأباطيل الفلسفية والخطابة<sup>(٥٦)</sup> .

## ٧ - الطب الروحاني

عندما أوضح أبقراط أن واجب الطبيب الأول وضع قوة الطبيعة الشفائية في الاعتبار . كان على بينة من أن الوسائل المساعدة على تحقيق ذلك نفسية ومادية . وغير كاف أن يتاح للجسم استيفاء أتم ما يمكن من الراحة ( كأن يلزم المريض الفراش . ويقتصر على الأغذية الخفيفة جداً) بل ينبغي للنفس أيضاً أن تأخذ حظها من الراحة ( الهدوء) وأن تنشط بالتشجيع والتعليل بالأمل . وواجب الطبيب أن يعالج مرضاه بالرفق الشديد .

وهاهو ذا فصل نموذجي في النصائح مستخرج من مجموعة متأخرة ، وإن كانت ترجع إلى أصول أبقراطية وثيقة :

« ألع عليك ألا تكون بالغ الحفاء بل خذ بعين الاعتبار - جدياً - موارد مريضك القليلة أو الكثيرة . امنح خدماتك بغير مقابل أحياناً ، ذاكراً إحساناً سابقاً أو رضا تناله في الحال . وإذا عرضت لك فرصة لخدمة غريب معسر فابذل معونتك لكل من هذه حاله . وحيث يكون الحب الإنساني يتجلى أيضاً حب الفن نفسه . ذلك لأن بعض المرضى . وإن كانوا على علم بخطورة حالتهم . يستعيدون العافية بمجرد شعورهم بعطف الطبيب . من الخير أن نراعى المرضى لكي يظفروا بالشفاء . وأن نعنى بالأصحاء لتدوم لهم العافية ، وينبغي أن يعتنى المرء بأمر نفسه . فيلزم ما هو لائق به » .

إن اهتمام أبقرراط بالعلاج الروحاني أمر طبيعي مقبول على افتراض أنه عاين (وهو أمر راجح) ممارسة الحضانة الروحية في المعابد الأسكليبية أو سواها. وإذا كان كذلك فقد سمع ، قطعاً ، بحوادث الشفاء العجيبة التي عمل الكهنة والحجاج ، ولا ريب ، على إذاعتها والإعلان عنها ، وتحققت عنده جدوى العلاج بهذه الأساليب . إن بين الجسد والنفس علاقة وثيقة متبادلة إلى أبعاد غاية . ولا يمكن أن يكون أحدهما معافى إذا كان الآخر سقيماً . ويتعذر على الطبيب شفاء أحدهما إذا أهمل الآخر ، وينبغي أن يجتهد في تقوية كليهما . ومن المفري جداً أن نطبق هذه الآراء على نص لأفلاطون مقتبس من محاورة خرميديس حيث يتحدث سقراط عن واحد من أطباء تراقيا الزلوكيسيين :

« الذين قيل عنهم إنهم من المقدرة بحيث يستطيعون تخليد الإنسان . » قال الرجل التراقي إن اليونان كانوا على حق فيما ادعوه ، كما حدثتلك الآن . قال : « ولكن ، يا زلوكيس ، إن ملكنا الذي هو إله يقول : كما أنه يجب عليك ألا تحاول شفاء عينين بلا رأس ، أو رأس بلا جسد ، كذلك يجب عليك ألا تعالج جسداً بلا روح » . ولقد كان هذا هو السبب في أن كثيراً من الأمراض أفلت من أطباء اليونان - لأنهم غفلوا عن « الكلل » وهو الحرى بأن يستنفد عناءهم . ومتى تطرق الخلل إلى « الكلل » فمن المحال أن يكون الجزء سليماً . وعلّة ذلك ، كما قال ، إن كل ما في الجسد ، بل وفي الإنسان جملة ، من خير وشر نشأ من النفس : وجرى من ثم كما جرى من الرأس إلى العين . وعليه فينثار ذلك الجزء بالمعالجة واجب فقط متى كان الرأس وسائر الجسم سليماً<sup>(٥٧)</sup> .

هذا الانتقاد الذي رواه سقراط عن الأطباء الزلوكيسيين ، إن صدق على بعض أطباء اليونان . فإنه لا ينطبق قطعاً على أبقرراط .

### الثمار الأبقراطية

إن ثمرة أبقرراط الرئيسية هي إدخال الاعتبار والمنهج العلمي في شفاء الأمراض . والسبق إلى إنشاء الأدب الطبي العلمي ووضع أول الوثائق

الإكلينيكية . وهذا الأمر من الأهمية بحيث لا يبقى به الإطراء مهما عظم . إن شخصية أبقراط ، على ما هي عليه من الغموض ، من أعظم الشخصيات إبداعاً في تاريخ البشرية . ويكفى أن يقال ، وفاء بحقه ، إنه قام بكل ما كان يمكن القيام به في عصره استناداً إلى الذكاء وحده ، دون الاستعانة بالعقاقير والأجهزة التي عرفت بعده . ومن الملاحظ حقاً أن فكرة تدوين الحالات الإكلينيكية وجمعها ، كما حققها هو في كتاب « الأوبئة » (Epidemics) ، لم تستأنف من بعده . أما القصص التي رواها جالينوس فهي في روحها دون إكلينيكيات أبقراط ، وهي أقرب إلى الإعلان عن النفس منها إلى تقارير صادقة سهلة على الطريقة الأبقراطية . ذلك لأن جالينوس كان يهيمه تمجيد اسمه وإذاعة شهرته أكثر مما يهيمه نشر الحقيقة . ولا نعر بعد جالينوس على تقارير إكلينيكية حتى عهد الرازي ( النصف الثاني من القرن التاسع ) . ولا أستطيع أن أذكر . من بعد هذا ، إلا شذرات قليلة مما خلفته العصور الوسطى في نظام الأكل (regimina) والإرشاد الصحي (consilia) . وتحليل أنطونيو بينيفيني الفلورنسي ( المتوفى سنة ١٥٠٢ ) للحالة المرضية بعد الوفاة . إلا أن الفاصل الزمني بين أبقراط وبينيفيني يبلغ نحواً من ألفي عام (٥٨) .

ومع أن أبقراط كان معنياً أكثر بعلاج المرض عامة منه بأمراض خاصة . فإنه ترك لنا صوراً إكلينيكية لداء السل والتشنج المخاضى وداء الصرع ، وسجل الملامح المعتادة التي تعلقو سحنة المحتضر أو الميت ، ووجه من أهزله الجوع أو أعياء الإسهال أو أسقمه الألم واستمرار المرض . ولا تزال هذه المظاهر تعرف بالوجوه الأبقراطية (facies Hippocratica) وهنالك ما يعرف « بالأصابع الأبقراطية » وهي أعراض خاصة ببعض أمراض القلب المزمنة ، إذ تتضخم مفاصل الأطراف حتى لتغدو كالنبايت . وذلك لعدم استكمال احتراق الأوكسجين في الجسم .

وتأمل هذه الحال التي ورد وصفها في كتاب الأوبئة (Epidemics) .

« إن زوجة دلرسييس ، في تاسوس ألزمها المرض الفراش . ونزل بها مكروه

فأصابتها حمى عنيفة صاحبها رعشة شديدة . وكانت من أول الأمر تلتف جملة ثم تأخذ - دون أن تنبس بينت شفة - في تحسس الأشياء ، وتعبث بكل ما تقع عليه يدها ، فتجذب الأشياء وتخدش وتقتلع الشعر ، وتبكي ثم تضحك ، ولم تكن تنام . مع أن الأمعاء عولجت بالمسهلات ولم تخرج شيئاً . وكانت تشرب شيئاً يسيراً لأن المساعدين الملازمين يشيرون عليها بذلك . وكان البول رقيقاً وقليلاً . والحرارة قليلة الارتفاع في اللبس . والبرودة بادية في الأطراف وفي اليوم التاسع : أصابها شرود عقلي كبير تلاه وعى وصمت .  
وفي اليوم الرابع عشر : تنفس خفيف وعميق في فترات طويلة ثم قصيرة بعد قليل (٥٩) .

هذا التنفس الموصوف في السطور الأخيرة يعرف اليوم إجمالاً بتنفس تشينى - ستوكس (Cheyne-Stokes) نسبة إلى طبييين من دبلن (١٨١٨) ، كما يعرف لدى طلبة الطب بـ « النبض المتحول (٦٠) » .  
إن إفراط جالينوس . ثم أطباء العرب . في الاحتكام إلى العقل . وإغراقهم في الزهو ، أنسى الناس أحياناً نباهة أبقراط الفطرية . وحجب حكمته ووداعته عن أنظارهم . لكن أفذاذ الرجال في كل عصر كانوا دائماً على استعداد ليؤدوا إلى شيخ الطب ما يستحق من الإكرام . ولأن يحاولوا النسيج على منواله . ولست أقصد الآن علماء فقه اللغة الطبي مثل أينوس فويس (١٥٢٨ - ١٥٩١) (Anuce Foes of Metz) . أو العالم الهولندي فان درلند (Van der Linden) ، اللذين نشرنا مؤلفات أبقراط (منه ١٥٩٥ و ١٦٦٥) على التوالي . وتداولها طلاب الطب على نطاق واسع . بل أقصد - بالأحرى - الأطباء الإكلينيكيين أمثال توماس سيدنهام (Thomas Sydenham) (١٦٢٤ - ١٦٨٩) . ولقد نشأت في آخر القرن الماضي موجة جديدة من الزهو الطبي عقب انتصارات علم الجراثيم . ومرّ وقت أخذ فيه كثير من الأطباء بسحر الجراثيم بحيث فاتهم النظر إلى المريض في حملته . وهذا الاتجاه دعا ، بالاشتراك مع عوامل أخرى ، إلى إحياء المبدأ الأبقراطي من جديد . وربما في شيء من المغالاة أحياناً (٦١) .

إلا أن أفذاذ الأطباء يحسنون التمييز بين العلم والحكمة ، ولذلك يسمون ، برغم التقدم العجيب الذى أحرزه علم الطب اليوم ، بأن فى الإنتاج الأبقراطى ما لا يعلى عليه .

### الطب الاسكليبادى

من الأمور النادرة التى نعرفها عن أبقراط أنه كان من أتباع الأسكليبايين (Asclepiadi) (ذكر ذلك أفلاطون) . ونعرف فوق هذا أن هناك هياكل مكرسة لأسكليبيوس إله الطب وراعيه . فمن هم هؤلاء الأسكليبيون ؟ أول ما يتبادر إلى الذهن أنهم كانوا كهنة هذه المعابد . وقد يعمل الكهنة النبهاء ، فى معابد الاستشفاء . على جمع أشتات التجارب الطبية من غير كبير عناء وبدافع شبه بديهي . ولكن الراجح أنه إلى جانب هؤلاء الرجال الذين كانوا نصف كهنة ونصف أطباء توجد مراكز طبية مشهورة مثل كنيديوس وكوس وفيها أطباء محترفون وصفوا بأنهم «أسكليبيون» ، إما لأنهم من سلالة الإله أو البطل أسكليبيوس . (Asclepios) أو لأن واجباتهم كانت يالهام من ذلك الإله .

وحرقة كهذه جذيرة بأن تنحصر فى أسر معينة ، ومن الطبيعى أن يدرّب الوالد ولده ويورثه تجاربه وأسرار صناعته . ولقد تحدثنا فيما سبق عن أسرتين طبيئتين - أسرة كتسياس (Ctesias) فى كنيديوس ، وأسرة أبقراط فى كوس . أما أبقراط فقد دربه والده هراكليدس على هذه الحرفة . واستأنف ممارستها ابنه وصهره من بعده .

وكان يجمع بين هاتين الأسرتين جامع المصلحة . ومن المحتمل أن تكون هذه الرابطة تجلت . ولو فى بعض المواضع . بصورة قوانين وأنظمة مدونة أو غير مدونة . ومن المحتمل أن يكون الأسكليبيون : فى منطقة ما ، قد ألفوا ما هو شبيه بالنقابة<sup>(٦٢)</sup> . أى جمعية مهنية ذات كيان يتكيف من حيث القوة والضعف تبعاً لمشيئة أبنائه . وذات حافز ربما كان اقتصادياً محضاً أو اجتماعياً أو علمياً أو دينياً . وربما كان ملوئاً بألوان عدة من هذه المؤثرات .

إن وجود كتب عديدة في مؤلفات أبقراط تعالج موضوع واجبات المهنة لا يستلزم وجود النقابات الطبية . وإذا صح وجود مثل هذه النقابات كان من المحتمل أن ندعو إلى العمل على تأليف كتب تتولى تحديد واجبات الأطباء وإيضاح عوائدهم ومسلكهم . وكتب واجبات المهنة هي أولاً : كتاب « القسم » الطبي (Oath) ، وكتاب « القانون » (Law) ، وكتاب « اللياقة » (Decorum) وكتاب « النصائح » (Precepts) والفصل الأول من كتاب « الطبيب » (Physician) وإذا كان بعض هذه المؤلفات متأخراً فلأنها تضم نصوصاً قديمة . وهي التي تعيننا في الوقت الحاضر .

والنص الموجز الوارد تحت عنوان « القسم » (Oath) يشتمل على الجمين المهنية ، وعلى شبه ميثاق (syngraphe) يقيد الطلاب بأساتذتهم . ودستور نقابة ، أيضاً كان نوعها ، لا بد أن يشتمل على هذين الأمرين . فيجب أن يضم أعضاء النقابة بعضهم إلى بعض ، ويهيئ للمرشحين سبيل التحصيل . والالتحاق بالنقابة ، ويعمل على صون تقاليد المهنة وضمان استمرارها . وقد تكون النقابة سرية ، ولكنها منظمة خاصة على كل حال ، تفرض نظامها على أعضائها لا غير ، وتيسر حمايتهم ضد هيئات أخرى أو في وجه الدخلاء غير ذوي الكفاية . على أنه ينبغي أن نحتاط فلا نأخذ هذه الأمور بمفاهيمها الحديثة الخالصة . فإن جميع وجوه النشاط في النقابة الحديثة . موجودة بالقوة (in potentia) في النقابة القديمة ، إلا أنها لم توضع في نظم معينة ، ولم تصغ في قالب قانوني . مثال ذلك أنه قد يكون للنقابة شعار أو طقس ، يقتضى إجراؤه في مناسبات خاصة ، كالاحتفال بقبول الأعضاء أو تشييع جثمانهم .

ولسنا نعرف عن ذلك شيئاً محققاً كل التحقيق . وعدم وجود الوثائق يدل على أنه حتى لو كان الأطباء الأسكليبيون قد انتظموا في نقابات . فإن نقاباتهم هذه لم تكن ، فيما يظن . بالغة الخطورة . وأن صح وجود نقابات طبية في بعض المناطق ، مثل جزيرة كوس ، فأهميتها كانت محصورة في منطقة صغيرة . وفي عهد قصير المدى<sup>(٦٣)</sup> .

## تعليقات

- (١) الأوديسا بالفصل الرابع ٢٢٧ - ٢٣٢. Odyssey, IV, 227-232.
- (٢) هيرودوت ، الفصل الثاني ص ٨٤ .
- (٣) في مجموع مصنفات ابقرات احالات كثيرة إلى الطب المصرى ، راجع : ليتريه (Littre). *Oeuvres completes d'Hippocrate*, (10 vols; Paris, 1839-1961)
- المجلد العاشر ص ٥٧٢ .
- (٤) هيرودوت ، الفصل الثالث ص ١٢٩ ، ١٣٢ .
- (٥) Heinrich Schofer "Die Widereinrichtung einer Arzteschule in Sais unter König Darius I," *Z. Aegyptische Sprache* 37, 72-74 (1899)
- مقتبس من نقش على « تمثال ناوفر » المحفوظ في القاتيكان ، وهو النص الوحيد من نوعه في العاديات المصرية .
- (٦) الإلياذة ، الفصل الثاني ص ٧٣١ - ٧٣٢ .
- (٧) Emma J. Edelstein and Ludwig Edelstein *Asclepius, a collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945)
- (لينيس ٣٧ ، ٩٨ « ١٩٤٧ ») .
- (٨) فيما يختص بعبادة الحية راجع : دائرة معارف الدين والأخلاق ، المجلد الثاني (١٩٢١)
- M. Oldfield Howey, *The encircled serpent. A study of serpent symbolism in all countries and ages.* (422 pp., ill.; London, 1926). ٤٢٣ - ٣٩٦
- راجع أيضاً: J.P. Vogel. *Indian serpent lore or the Nagas in Hindu legend and art* (quarto 332 pp., 30 pls.; London, 1926) (Isis 10, 234 '1938').
- (٩) من كانوا أكثر تشبهاً بالخرافات لم يقصدوا إلى المعابد الأسكلبية، بل توجهوا إلى حيث تقام الشعائر الروحانية الخفية ، أو إلى أماكن أخرى مثل معبد أمفياروس (Amphiaros) المجاور لاوروبوس Oropos (قرب تخوم بويوتيا Boeotia وأتيكا Attica ، على شاطئ البحر ، في مواجهة أيوبوا (Euboea) ، أو إلى هيكل تروفونويس (Trophonios) بكهف في لباديا (Lebadeia) [في بويوتيا (Bocotia)] .
- (١٠) تقع أبيدوروس (Epidauros) على شاطئ الخليج الساروني (Saronis gulf) إلى الشمال الشرقى من بيلوبونيز (Peloponnesos) .
- (١١) المرجع الوحيد الذى يحضرنى هو De decenti habitu VI; vol. 9, p. 235 .
- (١٢) لارماند ديلاط في كتابه « جامع الأعشاب (Herbarius) بحث مستقص رائع للغاية

في هذا الموضوع تحت عنوان "Recherches sur le cérémonial usité chez les anciens pour la cueillette des simples et des plantes magiques" (المجلد السابع والمثرون من مجلة إزيس Isis سنة ١٩٣٧ ص ٥٣١ - ٥٣٢) . وأعيد نشره متفحاً في ١٨٠ صفحة وأربع لوحات في لييج بعناية جامعة لييج سنة ١٩٣٨ (مجلة إزيس Isis ، المجلد الثلاثون ص ٣٩٥ سنة ١٩٣٩) .

(١٣) أجريجتوم (هي اكراجاس باليونانية ، وجيرجنتى بالإيطالية) مدينة تقع قريباً من منتصف ساحل صقلية الجنوبي .

(١٤) ورد في كتابي : « المدخل إلى تاريخ العلم » ، المجلد الأول ص ٩٦ « أبولونيا في كريت » . والواقع أن هنالك مواضع كثيرة عرفت بأبولونيا ، وهذه المدينة على الأرجح « أبولونيا في فريجيا » . ذلك أن جزيرة كريت كانت دورية « ، في حين أن ديوجينيس وضع مؤلفاته في أيونيا . وهذا لا يثبت أنه لم يكن كريتيا ، وأنه كانت نسبه إلى فريجيا أيسر محملاً . ماذا أقول ؟ سأخذ في الشك . راجع : Pauly Wissowa, vol. 9 (1903) 763. وعلى كل فإن ديوجينيس يعتبر ، بوجه الإجمال ، آخر ممثل الفلسفة الأيونية .

(١٥) لم يذكر شيء من ذلك في مجموع المصنفات الأبقراطية (على ما في فهرس ليتريه) Littré .

(١٦) تقع سلمبريا على الشاطئ الشمالي لبحر مرمرية .

(١٧) راجع : Littré المجلد التاسع ، ص ٣٨١ - ٣٩٩ .

(١٨) Armand Delatte, "Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes presocratiques" (٨٨ صفحة باريس ١٩٣٤) .

طبعة ثانية مستخرجة من العدد الثالث من مجلة L'antiquité Classique وليس هنالك ذكر للعلاج الموسيقي في مجموع المصنفات الأبقراطية (انظر فهرس ليتريه) .

(١٩) « كوس » جزيرة ، أما كنيديوس فتقع في نهاية رأس بالغ الامتداد في البحر ، فتكاد لا تختلف ، من ناحية عملية عن الجزيرة .

(٢٠) يجوز اعتبار الباحث التالية كنيدية الأصل بدرجات متفاوتة في الأقسام الثاني والثالث والرابع من كتاب الأمراض ، وهي العلل النفسية (Affections) العلل الباطنية (Internal Affections) التوليد (generation) طبيعة الطفل ، أمراض النساء ، والعقم ، وهذا الجدول غير شامل . ثم إن نص هذه الباحث مثبت في المجلدات السادس والسابع والثامن من مجموع ليتريه .

(٢١) إن عدداً وافراً من المأثورات الأبقراطية تتصل بأمراض النساء وعلم التوليد وطب الأطفال . وهنالك إشارات كثيرة إلى هذه الموضوعات في مصنفات أبقراطية أخرى .

(٢٢) لعل ورود ذكر يودكوس هنا غير متوقع ، لأنه كان رياضياً وفلكياً . وسناقش مؤلفاته الأساسية في فصل آخر . على أنه حصل شيئاً من التدريب الطبي على يد فيلسطين .

(٢٣) يأتي أرسطو على ذكرها في (Historia animalium) (الفصل الخامس الفقرة ١٥)

ص ٥٥١ ، عمود ٢ ) لكنه لا يشير إلى الزمن الذي عاشت فيه .

( ٢٤ ) إن الملابس الكوسية (Goae vestes) كانت ذات شهرة في العصور القديمة وإن كانت تختلف عن الملابس الصينية (vestes sinicae) المصنوعة من الحرير الصيني . والفرق بين الحرير الحقيقي (nema sericon, metaxa) (من أصل صيني) والحرير الغريب (الزائف) (من أصل هندي) ؟ أو كوسى) يتعذر بسطه هنا ، انظر (F. Warre Cornish) ف . واركونيش . محرر المعجم في العاديات اليونانية والرومانية . (Concise dictionary of Greek and Roman antiquities) لندن سنة ١٨٩٨ ص ٥٧٤ ، وراجع البرت نوربجر The technical arts and sciences of the ancients (Albert Neuburger) لندن سنة ١٩٣٠ ص ١٦٥ - ١٦٧ . « القدماء في مهنتهم وعلومهم الفنية » . (٢٥) من الأمور المثيرة أنه كان بين كوس وكنيدوس منافسة في عبادة أفروديت في أسكليبيوس . فني حين كانت الأولى تفاخر برسم للآلهة من صنع أبليس (Apelles) ، كان في حوزة الثانية تمثال لأسكليبيوس من تحت براكسيتليس (Praxiteles) وليت مدنا الأمريكية تتمكن من أن تتعهد منافسات كهذه .

(٢٦) لعل من الأسلم أن نقول إنه توفي بين الستين ٣٨٠ و ٣٧٠ . ويذكر سدھوف Sudhoff أن أبرقراط توفي سنة ٣٩٠ في السبعين من عمره . على أن ذلك كله من باب التخمين . انظر Ann. Medical History 2, 18 (1930)

(٢٧) أفلاطون ، محاوره بروتاجوراس (Protagoras) ص ٣١١ الفقرة الثانية .

(٢٨) أفلاطون : محاوره فيدروس (Phaidros) ص ٢٧٠ ألفقرات الثالثة والرابعة والخامسة .

(٢٩) أرسطو : كتاب السياسة (Politica) ص ١٣٢٦ الفقرة الأولى .

(٣٠) يستشهد أرسطو برسالة « طبيعة الإنسان » Nature of man . وينسبها إلى بوليبيوس (Polybos) وربما وردت في محاوره فيدروس Phaidros إشارات غسنية إلى هذه الرسالة ، أو إلى كتاب « الطب القديم » Ancient Medicine ومن المتعذر أن نعرف بالضبط أى الكتب كان مينون (المتصف الثاني من القرن الرابع) يقصد على وجه اليقين .

(٣١) جالينوس الفصل الخامس عشر ص ٤٥٦ .

(٣٢) انظر فيما يتعلق بالطب الهندي ، مجلة إيزيس (Isis) المجلد ٣٤ ص ١٧٤ - ١٧٧

(سنة ١٩٤٢ - ١٩٤٣) ، والمجلد ٤١ ، ص ١٢٠ - ١٢٣ (سنة ١٩٥٠) ، وفيما يتصل بالطب راجع مجلة إيزيس : المجلد العشرين ص ٤٨٠ - ٤٨٢ (سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤) والمجلد الثاني والعشرين ، ص ٢٦٧ - ٢٧٢ (سنة ١٩٣٤ - ١٩٣٥) ، والمجلد ٢٧ ص ٣٤١ - ٣٤٣ (سنة ١٩٣٧) ، والمجلد ٣٣ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ (سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢) ، والمجلد ٤١ ص ٢٣٠ (سنة ١٩٥٠) ، والمجلد ٤٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ (سنة ١٩٥١) .

(٣٣) سمى إبيدوكليس العناصر الأربعة rhizomata ، وسماها بعد ذلك أفلاطون (Stoicheia) وقد غلبت عليها التسمية الثانية . وهي لا تزال محفوظة في مصطلحاتنا الحالية مثل (Stoichiology) (علم

عناصر الأنسجة الحيوانية) و (Stoichiometry) و (علم مبادئ المركبات العنصرية) .  
أما الطبائع الأربع (الخصائص أو القوى) فدعاها أبقراط أو من سبقه dynamis ، ويقب هذا  
اللفظ شاملاً زمنياً طويلاً في اليونانية واللاتينية (dinamidia) ، واللفظة الإنكليزية (Pharmaco-  
dynamics) لا تزال تذكرنا بهذا الأصل .

وقد شرح نظرية الأمزجة الأربعة كويتوس Quintos المختص في علم التشريح والذي اشتهر  
في مدينة روما في عهد هادريان (١١٥ - ١٣٧) ، وأسس مدرسة للطب التي ينسب إليها أساتذة  
جالينوس . وقد نفى إلى برجامة Pergamon ومات فيها سنة ١٤٨ . ووضع جالينوس كتاباً انتقد فيه  
آراء كويتوس في الأمزجة الأربعة . انظر مجلة إيزيس (Isis) المجلد الثامن ص ٦٩٩ والعدد ١٠٥  
(١٩٢٦) ، وأيضاً كتاب «مقدمة في تاريخ العلم» المجلد الأول ص ٢٨١ (Introduction) .

(٣٤) الطب القديم : الفصل الخامس عشر .

(٣٥) الصرع : الفصل الحادى والعشرون .

(٣٦) انظر مقال ساتون «ملاحظات على نظرية الأمزجة» في مجلة إيزيس المجلد الرابع  
والثلاثين ص ٢٠٥ - ٢٠٧ (١٩٤٢ - ١٩٤٣) .

(٣٧) إن الفوارق في الأمزجة ، أو في تركيب الأجسام ، الناجمة عن عوامل المناخ أو  
خصائص الجنس ، بينها أبقراط بوضوح في رسالة «الأهوية والأمواء والأماكن» ، ولم يورد شيئاً عن  
الأمزجة الأربعة . واللفظ اليونانى «المزاج» هو Crasis (مزج) ، ذلك لأن أى مزاج إنما ينجم  
عن امتزاج خاص للعناصر والطبائع والأخلاط الأربعة . وعنوانه رسالة جالينوس هو : Peri crason ،  
De temperamentis انظر كتاب ك . ج . كون : المجلد الأول ص ٥٠٩ - ٦٩٤ .

(K.G. Kühn, Galeni opera omnia) vol. 1, pp. 509-694.

(٣٨) «أقوال مأثورة (Aphorisms)» الفصل السابع ص ٨٥ .

(٣٩) كتاب «التكهن بالمرض» (prognostic) الفصل العشرون ، وكتاب «الأوبئة»  
(Epidemics) المجلد الأول ، الفصل السادس والعشرون .

(٤٠) James Henry Breasted the Edwin. Smith surgical papyrus (Chicago: University of Chicago Press, 1930), Vol. I (Isis 15, 355-367 (1931)

(٤١) كتاب الأغذية الفصل الثامن والأربعون (Nutriment)

(٤٢) لا نعثرفى فهرس ليريه على مادة (pouls) (النبض) و (sphygmologie) (علم النبضان) ،  
لكن انظر مادة (battements) (النبضان العتيف فى الصدغ) . وقد خصص الفهرس المفصل لكتاب  
جالينوس الذى نشره كون (Kühn) مجالا رجباً (ص ٢٠٦ ، ٥١٦ - ٥١٦) لأنواع النبض واختلافاتها .  
وهذا يعيننا على تقدير التقدم الطبى الذى أحرز هذا الموضوع بين القرن الخامس ق . م . والثانى للميلاد .

(٤٣) وضع أجييموس Aegimios كتاباً فى خفقان القلب ، أو حركة النبض ، Peri palmon ،  
اعتمده جالينوس وأشار إليه . ولولا ذلك لبق مجهولاً . راجع Biographisches Lexikon der her-

المجلد *vorrangenden Aerzte aller zeiten und Volker* (ed. 2, 6 Vols.; Berlin, 1929-1935)

الأول ص ٣٧ .

(٤٤) Emmet Field Horine, "Epitome of ancient pulse lore, « خلاصة علم القدماء

بالنبض» نشرة تاريخ الطب (Bull. History of Medicine) المجلد العاشر ص ٢٠٩-٢٤٩ (١٩٤١).

(٤٥) كتاب الأوبئة (Epidemics) المجلد الأول ، الفصل الرابع والعشرون .

وفي الفصل الخامس والعشرون والسادس والعشرون معلومات إضافية لا مجال لذكرها هنا عن

نشوء مختلف الحميات وتطور حالاتها مثل : « الأيام الحرجة » .

(٤٦) و. ه. س. جوزف. *Malaria a neglected factor in the history of Greece and Rome.*

« الملاريا عامل مغفل في تاريخ اليونان وروما (١١٤ صفحة كمبريدج ١٩٠٧) ؛ الملاريا وتاريخ

اليونان » *Malaria and Greek History* (١٨٤ صفحة ، مانستر ١٩٠٩) (مجلة إيزيس ،

المجلد السادس ، والعدد ٤٨ (١٩٢٤ - ١٩٢٥) .

يدعى جوزف أن انحطاط اليونان ثم روما وسقوطهما يرجع في الأغلب إلى الملاريا . إذا كان من

المتعمد إثبات افتراضه هذا بالدليل الناجح ، فإنه - والحق يقال - ساعدنا على تحقيق الأهمية الكبرى

التي كانت للملاريا في التاريخ القديم . ولا يزال هذا المرض ، في كثير من أقطار العالم ، العامل

الطاغى على مسرح الحوادث - وهو السبب الرئيس لتأخر بعض البلاد الشرقية . انظر إيزيس

المجلد الحادى والأربعين والعدد ٣٨٠ (١٩٥٠) . وهناك خلاصة جيدة لتاريخ الملاريا ولطبيعة هذا

المرض المشثومة حتى الوقت الحاضر في كتاب نورمان تيلور : « خشب الكينا في جانا » (*Cinchona in*

*Java*) (نيويورك: جرينبرج ١٩٤٥) (إيزيس ، المجلد السادس والثلاثون والعدد ٢٣٠ «١٩٤٦»)

(٤٧) جوزف « أبقراط » (Loeb Classical Library) المجلد الأول ص ٤ من المقدمة .

(٤٨) نعم ، لم يتمكن الأطباء الأبقراطيون من أن يفهموا الطبيعة الأساسية للأمراض الملارية ،

ولا استطاعوا أن يعرفوا دواها الخاص «خشب الكينا» وهو نبات موطنه أمريكا الجنوبية - ذلك النبات

الذى كشف للعالم فاعليته العجيبة هنود بيرو في القرن السابع عشر . أما استخراج الكينا منه فتم على

يد بليتيه (Pelletier) وكاننتو (Caventou) سنة ١٨٢٠ . وفيما يلي خلاصة الخطوات الأولى التي

خطاها البحث العلمى في معرفة الملايا . ففي سنة ١٨٨٠ عثر لافيران Laveran على البسيط الحيوانى

(protozoans) الخاص بفصيلة الطفيليات الملارية (*Plasmodium*). وذلك في الكريات الحمراء في دم

المصابين بالملاريا . وفي سنة ١٨٩٧ وجد السير رونالدروس (Sir Ronald Ross) هذه الطفيليات

الملارية في أمعاء البعوض . وأظهر جيوفانى باتستاجراسى سنة ١٨٩٨ أن الذى يحمل طفيليات الملاريا

من البعوض فصيلة هى المعروفة بالأنوفيليس (*Anopheles*). وحري بالملاحظة أن هذه الكشوف

تحققت في مواضع مختلفة . فكشف لافيران تم في قسنطينة الجزائر ، وروس في بيجومبت سيكلوندرأباد

قرب حيدرأباد وجراسى في روما . أما قصة الكينا فتجرى على مسرح يمتد إلى جافا ، وكل ذلك

بعيد كل البعد عن جزيرة كوس ، مكاناً وزماناً .

(٤٩) انظر فيما يتعلق بالقصد « المقدمة في تاريخ العلم » المجلد الثاني ص ٧٦. مارس أبقراط الفصادة والحجامة ولم يستخدم الملق، والإشارة الوحيدة إلى الملق (bdella) في مجموع المصنفات الأبقراطية وردت في الفصل الثاني من البحث التمهيدى ص ١٧ (Prorrhetic II)، وهي إشارة عارضة ، مؤداه أن امتلاء الزور بالدم ربما كان ناجماً عن وجود علقه خافية فيه . ويبدو من ذلك أن قدامه الأطباء لم يكتشفوا الملق، بل الأخرى أن يكون الملق هو الذى اكتشفهم . والملق، في موطنه الطبيعية من أسباب الإزعاج الشديد . على أنه قد بان لبعض الأطباء النباه أن هذا الانزعاج من المستطاع تحويله إلى وجه من المنفعة . وفي مؤلفات جالينوس إشارات كثيرة إلى الملق . راجع فهرس الطبعة التى أعدها كيون (Kuhn) (s.v. hirudines)

(٥٠) آدموند و . فون ليمان (Edmond O. von Lippmann, *Geschichte des Zuckers*) (برلين ١٩٢٩) مجلة إيزيس المجلد الثالث عشر ص ٣٩٣ - ٣٩٥ (١٩٢٩ - ١٩٣٠) . ولم يكن قصب السكر معروفاً غرب الهند قبل الفتوحات الإسلامية الأولى إلا فيما قل ونذر (النصف الأول من القرن السابع) . انظر « المقدمة » . Introduction المجلد الأول ص ٤٦٥ . وظهر في مصر سنة ٦٤٣ ، وفي سوريا (دمشق) سنة ٦٨٠ ، وفي قبرص سنة ٧٠٠ ، وفي إسبانيا سنة ٧١٤ ، وفي بروفانسيا سنة ٧٥٠ ، وجزيرة كريت سنة ٨١٨ وجزيرة صقلية سنة ٨٢٧ .

(٥١) للاطلاع على تاريخ هذه الفكرة راجع كتاب ماكس نوبورجر Max Neuburger نظرية قوة الطبيعة الشفائية عبر الزمان « The Doctrine of the healing power of nature throughout the course of time Am. Inst. Homeopathy New-York 1932) . ويعجز أن نعتبر فكرة « قوة الطبيعة الشفائية » vis medicatrix naturae الشاهد الأول على التنظيم الذاتى فى الأجسام الحية . قابل « melius interieur » نكلود برنارد . برأى ولتر براد فورد كافون (١٨٧١ - ١٩٤٥) فى نظرية المداواة بالداء ، فى مجلة إيزيس المجلد السادس والثلاثون ص ٢٥٨ - ٢٦٠ (١٩٤٦) وهو أكثر إسهاباً . وقد تكون هذه الفكرة ذات اتصال بالناموس العام الذى قرره هنرى لوشاتليه (Henri Le Chatelier) (١٨٥٠ - ١٩٣٦) فى سنة ١٨٨٧ . وهو أن الاتزان فى جهاز ما ، إذا أزعجه عن مكانه ضغط عارض ، فإن انحرافه يجرى على نحو يعيل معه إلى إزالة ذلك الضغط .

(٥٢) هذا معروف ومتفق عليه بشأن مرض واحد على الأقل هو داء السل .

(٥٣) انظر المقدمة Introduction المجلد الثالث ص ٢٨٦ ، ١٢٤٠ .

(٥٤) مثال ذلك أن العنوان الفرعى لكتاب جانوس (Janus) الثالث هو « الوثائق الدولية

لتاريخ الطب والجغرافية الطبية » .

(٥٥) نذكر له هذه المأثرة منوهين بما للطب المصرى من فضل سبق وصفه فى الفصل الثانى .

(٥٦) انظر كتاب ( الطب القديم ) . Ancient medicine .

(٥٧) أفلاطون : محاوره جرميدس ١٥٦ . Charmides .

(٥٨) انظر مقال : ماكس مايرهوف « ثلاث وثلاثون ملاحظة أكليتيكية لرازي (حوالى

- ٩٠٠ ب. م. ) « في مجلة Isis ، المجلد الثالث والعشرون ص ٣٢١ - ٣٧٢ ( ١٩٣٥ )  
 مشتملا على النص العربي في ١٤ صفحة . وقد نشر ما يرهوف على حدة صفحتين في تصحيح الخطأ  
 الوارد في النص . وفي حوزتي نسخ من هذا التصحيح . وفيما يتعلق بنصوص نظام الأكل (regimina)  
 والإرشاد الصحي (consilia) راجع المقدمة « المجلد الثالث ص ٢٨٥ - ٢٨٦ و ١٢٣٨ - ١٢٤٠ .  
 أما كتاب بنيفي De abditis nonnullis ac mirandis morborum et sanationum causis .  
 الصنير والواسع الشهرة ( البندقية ١٥٠٧ ، وطبعات أخرى منه سنة ١٥٢١ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ،  
 ١٥٨١ ) فإنه يشتمل على وصف عملية من عمليات التشريح ، عدد من الحالات الاكلينيكية .  
 ( ٥٩ ) كتاب الأوبئة Epidemics ، الفصل الثالث ، الحالة الخامسة عشرة .  
 ( ٦٠ ) جان تشين ( ١٧٧٧ - ١٨٣٦ ) وصف هذا النوع من التنفس في التقرير الثاني من  
 تقارير مستشفى دبلين ص ٢١٦ ( ١٨١٨ ) Dublin Hospital Reports, 2, 216 1818 .  
 ووصف وليم ستوك (William Stocke) ( ١٨٠٤ - ١٨٧٨ ) حالات أخرى سنة ١٩٤٦ .  
 ( ٦١ ) Isis المجلد الرابع والثلاثون ص ٢٠٦ ( ١٩٤٢ - ١٩٤٣ ) .  
 ( ٦٢ ) انظر مادة Guilds في دائرة معارف الدين والأخلاق المجلد السادس ( ١٩١٤ )  
 ص ٢١٤ - ٢٢١ بقلم أ. أ. كراولي (A.E. Crawley) و . ج . س . ريد (J.S. Reid)  
 وانظر أيضاً : « المقدمة » المجلد الثالث ص ١٥٢ - ١٥٦ .  
 ( ٦٣ ) انظر مقال و . ا . س . جونز (W.H.S. Jones) : « الجمعيات السرية والمصنفات  
 الأبراطية » "Secret societies and the Hippocratic writings"  
 ( نشر مكتبة لويب Loeb الكلاسيكية ) المجلد الثاني ( ١٩٢٣ ) ص ٣٢٣ - ٣٢٦ .